

## مَكُونَةٌ عَجِيبَةٌ جمانة ثروت كتيبي



«المشاعر» إذا تأملتها فشيءٌ بديعٌ من خُلُقِ الله! وجودها من أصدق دلائل الوجود المعنوي، وصعوبة التعبير عنها على الوجه الدقيق القاطب للحال هو مَكَمَنٌ غَوْرَهَا وَعَمَقُهَا!

يظن المرء أنه عندما يُعَبِّرُ عنها يَقْدِرُ على إيصالها كما شعر بها، لكن هيهات هيهات! فالذي يصل؛ فذُرٌّ منها، بحسب البراعة في التعبير، كما إن رأيت صورةً فَمَسَّرْتُكَ، ورسمته فأغضبتك، كما إن سمعت قصيدةً فحَمَسْتُكَ، وقرأت قصةً فأبكتك! فما حدث معك هو وصولُ المشاعرِ المُعَبَّرِ عنها بصورةٍ أو كلمةٍ، وقد يُفَرِّقُ بينهما بعضُ التفريق، كما يقول المنفلوطي -رحمه الله-:

«الكاتبُ كالمُصَوِّرِ كلاهما ناقل وكلاهما حاكٍ، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس، والثاني ينقل مشاهد الحس إلى الحس» لكنه مع تفرقه بينهما بهذا الفارق الذي يمكن النقاش فيه، إلا أنه يعود فيذكر المشترك الأکید بينهما، فيقول: «وكما أن ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالأشياء الواحد، كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس، خيال المكنون في النفس» [النظرات، 101/3، الدار النموذجية].

أي أنّ كليهما مُجَوِّدٌ بقدر إيصاله للحقيقة الحسيّة أو المعنوية.

شيءٌ ما مما يراؤُ إيصاله من خلال الكلمة المكتوبة؛ سبيل، لكن ليس كما هو، فمهما وصلك من التعبير عن: دُحُولِ المفاجأة، ولذة النجاح، وصعوبة الكفاح، وألم الوحدة، وأنس الأوبة، وبهجة الأمومة، ومهما كَتَبَ الكاتبون وباحَ السّاهرون، عن: حسرة الخيبة، وصدمة الغربة، وعن لذع اليتم، ومرارة الفقر، وأمل الحياة، وبشارة الصباح، وغير ذلك مما يتسابق المُعَبِّرون للتعبير عنه... لن يدرك أيُّ شيءٍ منها تمام الإدراك إلا بالمُعَايشة! فلا يتصوّر أحدٌ أنّ مشاعره تُفهم حقّ الفهم من قِبَلِ مَنْ لم يجربها، ولا يتوهّم أنّ متوهمٍ متوهمٍ أنه يُحيط علمًا بشعورِ نفسٍ غيره، طالما لم يعيش ما عاشتها!

ونفي الإحاطة لا يعني نفي شيء من الفهم، فمن خيرة النفوس تلك التي تقبل اليسير ممن يحاول فهمها، بل تسعد تمام السّعد حين تلمحُ تلك المحاولة، فكيف بالتماهي معها؟

انظر لقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنه- وهي تروي حديث الإفك الطويل، أيقت فيه ذكراً مؤثماً يُروى إلى يوم الدين، وذلك قولها: «وبكيتُ يومي لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيتُ ليّلتين ويوماً حتى أضلُّ أن البكاءَ مألوقٌ كيدي... فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستُ تبكي معي» [البخاري (2661) ومسلم (2770)].

وكذا انظر فيما صرّح به كعب بن مالك -رضي الله عنه- أحد الثلاثة الذين خُلفوا عن مؤتة ونزلت فيهم آيات التوبة، قال: «فلما صليت صلاة الفجر ضحك حُفسيين ليّلةً وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينما أنا جالسٌ على الخال التي ذكر الله! قد صاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبتُ، سمعتُ صوتَ صارخٍ، أوقى عليّ جبلٌ سلعاً بأعلي صوته: «يا كعبُ بن مالك، أبيتُ... فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فرجٌ، وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبةٍ لله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبسرونا، وذهب قِبَلِ صاجتي مبسرون، وركض إليّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، فأوقى عليّ الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَهُ يبسرنِي، نرعتُ له توبةً، فكتبته إياها ببسراه، والله ما أمكٌ غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ توبتين فلبستهما، وأطلقتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبئلتاني الناسُ مَوْجاً مَوْجاً، يهنوني بالتوبة، يقولون: «لئهنك توبة الله عليك...» حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ حوله الناسُ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهزول حتى صافحتني وهتاني، والله ما قام إليّ رجلٌ من المهاجرين غيرهُ، ولا أنساها لطلحة» [البخاري (4418) ومسلم (2769)].

أعد وصف أم المؤمنين لحزنها وتوثيقها مؤازرة الأنصارية لها، وتأمل وصف الله حالة كعب وصاحبه، ثم تأمل أخرى قول كعب «لا أنساها!» فلا تنس أنت مثل هذه الصنائع التي مُدَّتْها لحظات، بل وتلقحها ولا تبخسها قدرها ولو كانت كلماتٍ يسيرات.

واقبل من بقيت الناس ما طابت به أنفسهم من أشكال المؤازرة وإن لم يُحسِنوا تأويل مشاعرك، ولا إصابة النصح لحاجتك وبُغيتك؛ فأن تطلب من الناس فهمك في كل خلجاتك؛ فذا طلب عسير، على مُعظم الناس غير يسير! ولا أنت بنفسك تُجيدُهُ وتُحسنهُ؛ إلا مع قليل منهم. وعليه فليس بمطلوب أن نفرّد، فُضِيفَ لما بنا شعور الخذلان والوحدة تَعَلُّلاً بانعدام مَنْ يفهمنا! بل المطلوب أن تُدرك الحال؛ وأن نعيش ونحن نعلم أن لكل سرّاً وضراً، ولم ينفرد أحدٌ بواحدٍ منهما قط، ولكل منهما مشاعر وعبوديات.

ويا لجمال المشاعر بكل تنوّعاتها، فهي عجيبة التفسير زهية، سريعة التوقّد غريبة! ويا سبحان الله! قد جعل لكل شيءٍ قَدْرًا، وأحاط تعالى بكل شيءٍ علمًا، فنسال الله من فضله.

جمانة بنت ثروت كتيبي  
4 / 27 / 1447هـ